الفصل الثانى

الطابع العام لنظريات تفسير الأدب

• التحليل الجزئـــى

• المشاهدة التكاملية

شهدت بداية هذا القرن أقبالاً شديداً على مناهج الدراسة الأدبية التى جاء بها كل من سانت بيف وتين وبرنتيير، فى القرن الماضى. وهذه المناهج تتجه بشكل عام نحو تحليل الظاهرة الأدبية تحليلاً جزئياً، فالباحث ينظر فى الأجزاء وفيما بينها من علاقات للوصول إلى العوامل الكلية التى تحكم الظاهرة الأدبية.

والنظرة السريعة عبر هذه الدراسات كفيلة بأن تطلعنا على المنطق الذى يوجه هذه الدراسات. ولايهمنا فى هذه النظرة السريعة أن نقف على النتائج التى أنتهوا إليها، بقدر ما يهمنا كيف توصلوا إليها، فإننا نريد الوقوف هنا على مناهج تلك الدراسات.

١ ـ وقد حاول سانت بيف (١٨٠٥ـ١٨٦٨) وضع منهج يقوم على تفسير آثار الأديب على ضوء حياته الخاصة بصورة مفصلة ودقيقة، وقد دفعته نزعته الوضعية إلى البحث فى نشأة الكاتب وفى طباعه الخاصة وفى مكوناته الثقافية والنفسية، وأهتم إلى جانب ذلك بدارسة عاداته وأفكاره، وما عرفه فى حياته من إخفاق ونجاح، ذلك من أجل الوصول إلى إكتشاف العامل الجماعى المشترك الذى يوحد بينه وبين غيره من أدباء بيئته وعصره، أو بالأحرى الخصائص التى تجعله ينتمى إلى نمط أدبى أو فكرى معين.

فالأدباء على رأيه أنماط كأنماط النباتات والحيوانات، يتشكلون وفق طبيعة

الظروف والمؤثرات الخارجية. فالعامل المشترك، من وجهة نظره يسمح للكاتب أن يندمج داخل فئة أو جماعة أدبية معينة لها خصائص وصفات محددة. وبوجه عام نال العنصر المشترك معظم أهتماماته وكان يرجو على الدوام أن يبرزه ويبرز دوره فى تشكيل الجانب النفسى والعقلى عند الكاتب.

وقد صادف منهج (سانت بيف) الكثير من القبول لدى عدد من الباحثين الذين أعتبروا ممثلين للإتجاه العلمى لدراسة نفسية الأديب، وأعتبرت مهاجمة أرائهم فى هذه المرحلة مهاجمة للإتجاه العلمى بوجه عام.

٢ ـ أما هيبولت تين (١٨٦٨ ـ ١٨٩٦) فيوجه أهتمامه نحو تأثير الجماعة على الفن والأدب منطلقاً من نظرية جمالية حتمية تنهض على الأعتقاد بوجود قوانين ضرورية تتحكم فى عالم الفرد وعالم الجماعة، وتحدد إتجاه التطور لديهما. ومن هذا المنطق نراه يحاول دراسة الفن والأدب بأسلوب العالم الوضعى، حتى يتسنى له التوصل إلى القانون العلمى الذى يحكم التطور الفنى بدلاً من الاقتصار على تفسير الأثر الأدبى أو الفنى عن طريق عبقرية الفرد المبدع. وقد أستطاع تطبيق منهجه على ثلاث مشكلات جمالية تتمثل فى ماهية العمل الفنى أو الأدبى وتكوينه وقيمته. وكانت نقطة البدء لديه هى تقريره أن الأثر الفنى أو الأدبى ليس واقعة فردية منعزلة، بل ظاهرة ترتبط بظواهر أخرى تفسرها.

فالأثر الأدبى ـ فى رأيه ـ ظاهرة طبيعية تحددها الحالة العامة للعقلية الجماعية، والعادات والأخلاق السائدة ومجموعة من الشروط المحددة والقوانين الثابتة. والشروط العامة التى تتحكم فى تطور الوقائع الفنية والأدبية، هى تلك الشروط التى تخضع لها كافة الظواهر الإنسانية (السلالة، الوسط الاجتماعى، العصر). والأثر الأدبى أو الفنى وفق هذا المفهوم يبدو وكأنه ظاهرة طبيعية يتكون فى ذهن الفرد المبدع بصورة تدريجية، ومن ثم فإنه ليس سوى نتاجاً ضرورياً يلزمنا لفهمه إسناده إلى تلك الشروط التى تتحكم فى عملية تكوينه.

ويقرر تين أن الوقائع المادية أو النفسية لها علل خاصة، فكل واقعة معقدة إنما تولد من تلاقى وقائع أخرى أبسط منها، وتتوقف عليها، لهذا يرى أنه من اللازم أن نبحث عن تلك الوقائع البسيطة فى مجال الكيفيات الأدبية أو الفنية كما نبحث عنها

والشروط التى حددها تين فى تحكم الوقائع الفنية أو الأدبية هى مجموع الأفكار الموروثة والأرض والمناخ من ناحية والعوامل الإجتماعية والثقافية من ناحية أخرى، وأخيراً كل جوانب الأستقرار والتغير فى الحضارة. وتبعاً لذلك إذا أردنا أن نفهم الأثر الأدبى أو الفنى كان لزاماً علينا أن نتعرف بدقة على الحالة العامة للروح الإجتماعية والعادات الإخلاقية السائدة فى البيئة التى ظهر فيها الأثر.

وهذه العناصر الثلاثة، أعنى (السلالة، البيئة، العصر) تجعل من الظاهرة الأدبية كالظاهرة الطبيعية ليست سوى نتاجاً ضرورياً يلزمنا لفهمها أن نردها إلى تلك العناصر الثلاثة. فالظاهرة الأدبية لها علل خاصة تكمن وراء وقائع نفسية ومادية معقدة تولدت فى الأصل من وقائع أخرى بسيطة يمكن البحث عنها عادة فى مجال الكيفيات المادية.

ومن الجلى أن الشروط التى حددها تين فى تحكم الوقائع الفنية أو الأدبية تجعل من مظاهرة الأبداع الأدبى أو الفنى نتاجاً لمجموعة هذه الشروط وهذه النظرة كما هو واضح تطبع ظاهرة الإبداع بطابع ثباتى لا يخفى وطبيعتها.

٣ ـ وأهتم برونتيير بإجراء دراسات على الأدب وأنواعه. وقد حاول أن يطبق نظرية التطور على الأنواع الأدبية، فهو يرى أن الأنواع الأدبية تخضع لقانون التطور العام. فالملحمة الشعرية القديمة مثلاً قد تطورت عبر القرون حتى أصبحت ما يعرف فى عصره باسم «القصة النثرية» وأن الخطب الدينية التى كان يلقيها فى القرن التاسع عشر كبار الخطباء الدينيين قد تطورت، فأصبحت الشعر الغنائى الذى كان سائدا فى عصره وهو فى هذه التفرقة يستند إلى آراء داروين فى طبيعة الكائنات الحية، لذلك نراه يعتبر طبيعة النوع الأدبى كطبيعة الكائن الحى ينمو ويتوالد ويتكاثر، متطوراً من البساطة إلى التعقيد فى مراحل زمنية متوالية، حتى يصل إلى مرحلة عظيمة من التطور، فيتهى بها إلى الفناء كما فنت بعض أنواع الحيوانات. وهذا التطور فى رأيه يخضع لجملة عوامل ضرورية نابعة أساساً من مؤثرات البيئة والمرحلة التى ظهرت فيها.

والظاهر أن نزعته نحو صياغة علم للنقد، وحماسته للإتجاه العلمى والتجريبى

والظاهر أن نزعته نحو صياغة علم للنقد، وحماسته للإتجاه العلمى والتجريبى قد جعلتاه يعتقد أن الأنواع الأدبية كالكائنات الحية، غافلاً بذلك الفروق التى توجد لدى كل نوع من الأنواع.

من هذه اللمحة العابرة نستدل على شئ هام ألا وهو أن هذه الدراسات يغلب عليها طابع العلم الوضعى من حيث أن العلم الوضعى يعتبر الظاهرة الأدبية مجموعة من العناصر المركبة تخضع لعدد من الشروط أو القوانين التى تحكمها، لهذا نجد أن هذه الدراسات أو مثيلتها منصرفة إلى إنجاز تفاسير وتحاليل علمية صارمة.

وإذا تساءلنا ومن أين لأصحاب هذه الدراسات هذه النظرة العلمية؟ كان لزاماً علينا أن نتبين الفكر الشائع فى القرن الماضى ألا وهو الفكر الوضعى، فنهضة العلوم الطبيعية وسيطرة قوانينها أدى إلى ظهور الفلسفة الوضعية عند أوجيست كونت، كما أدى إلى ما يمكن أن نسميه بالدراسة «الوضعية للأدب». وهذه الدراسة الوضعية تفسر الأدب على ضوء قوانين ثابتة، كقوانين العلوم الطبيعية، والميزة الواضحة فى مناهج هذه الدراسات، هى النزعة التحليلية ذات الطابع التجزيئى.

ونحن نعرف أن مناهج هذه الدراسات، قد لاقت فى البداية قبولاً من الباحثين، لكنها قد واجهت فى النصف الثانى من هذا القرن، أنتقادات عديدة، نتيجة الأخطاء التى وقعت فيها وهى تعالج الظاهرة الأدبية.

ولكن تلك الأخطاء قد نبهت عدداً من الباحثين فيما بعد، وجعلتهم يتحررون من النظرة التقليدية لتحليل الظاهرة الأدبية، أعنى إعتبارها مجموعة من الأجزاء تقود الباحث نحو عناصرها الكلية، فسانت بيف فى دراسته لدور المؤثرات الخاصة والعامة فى حياة الأديب، قد بدأ بدراسة عناصر نشأته ثم طباعه الخاصة ومكوناته النفسية والثقافية، ثم عاداته وأفكاره وتجاربه الشخصية.. إلخ. ثم جمع بين هذه الأجزاء ونظر فيما بينها من علاقات وحاول الوصول إلى العوامل الكلية التى تحكم حياة الأديب. بينما الباحث الحديث ينظر إلى الظاهرة الأدبية، من الداخل أو من الخارج ـ نظرة كلية تبدأ بكافة العناصر التى تكون الظاهرة، والأمثلة على ذلك كثيرة

فى الدراسات الراهنة . ومن هذا القبيل ما حدث فى الدراسة التى أجراها جولدمان على الرواية . فهو قد حاول أن يعلل تحول بناء الشكل الروائى (إختفاء البطل الفرد) إبتداء من القرن التاسع عشر حتى عصرنا عن طريق تغير البنية الإقتصادية فى المجتمع الحديث ، فالمؤسسات الإقتصادية فى المجتمع الصناعى قد دفعت الفرد إلى الإهتمام بصفة أساسية بجزئيات الحياة اليومية . ومعنى هذا أنه قد إستطاع إيجاد علاقة ذات دلالة بين بنية الشكل الروائى وبنية البيئة الإجتماعية .

ونقطة البدء فى تلك الدراسة كانت المشاهدة الكلية لظاهرة التحول الروائى وغيرها من الظواهر (إجتماعية وإقتصادية) ثم محاولة تكوين فروض عاملة ، أهمها ذلك الفرض القائل بوجود تشابه بين تحول البنيات الإقتصادية ، الإجتماعية والبنيات الفنية للرواية الحديثة ، ثم محاولة إختبار هذه الفروض بواسطة التحليل الأمبريقى .

ومن هذا القبيل أيضاً دراسة جاك لينهارت . التى عالج فيها تطور البناء الفنى للآثار الروائية عند آلان روب جرييه وعلاقته بالتحولات التى أعترت البنية العامة للمجتمع الفرنسى المعاصر . وكذلك دراسة شارل كاستيلا عن الرؤية الإجتماعية عند موبسان ، فقد رأى أن فقدان الشخصيات لعنصر الأصالة ، وإستعارتها من العالم الخارجى مقوماتها الأساسية ، يرجع إلى تطور الأيديولوجية البرجوازية فى أواخر القرن التاسع عشر . ومن ذلك يتبين لنا أن الخطوة الأولى فى المنهج الحديث ، تعتمد على تكوين فكرة عامة عن جملة العناصر التى أسهمت فى تكوين الظاهرة ، كالخصائص العامة للتيارات الإجتماعية وعلاقة هذا بالتيارات الفنية والنفسية ، وعلى هذا الأساس نتوصل إلى تفسير الظواهر الأدبية أو الثقافية .

وخلاصة القول ، أن النزعة التكاملية قد بدأت تسود فى مجال الدراسات الأدبية ، وهذا لا يعنى أن الميدان أصبح يخلو من محاولات تغلب عليها النزعة التحليلية التجزيئية ومن هذا القبيل نقاد الأدب التقليديون الذين لم يزيدوا على أن جزءوا الأثر الأدبى إلى وحدات متعددة ، أعنى القائلون بالتقسيم التقليدى إلى شكل ومضمون .

- 2 -

المراجـع

1 - Brunetiere, F., Revolution des genres, Paris, 1890.

2 - Monrot, P., la critique litteraire en france, Paris, 1960.

3 - Spitzer, M., Method of interpretion literature northampton, 1955.

4 - Tain, H., Histoire de la litterature anglaise, Paris, 1940.

5 - Saint- beuve, chateaubriand et son groupe litteraire, 1940.

6 - Saint- beuve, Portraits litteraire, Paris, 1839.

obeikandl.com